إضاءة

ما لا تأبه به أوروبا «الخضراء»

الإبادة البيئية في فلسطين

تضع المركزيةُ الغربيةُ أرضَ فلسطين خارج انشغالاتها الإيكولوجية؛ فبينما تتبجّح بالدفاع عن البيئة، لا يرفّ لها جفنٌ حين تُدمّر الآلةُ العسكرية الصهيونية حقول غزّة، ولا يكون لتلك الجرائم من صدى في ضمير دعاة المحافظة على الكوكب وأنواع الحياة فيه

نجم الدين خلف الله

أكّدت دراسةٌ، صدرت مؤخّراً، أنّ الطبيعة غابت تدريجيّاً عن فضاءات المُدن، كما عن نصوص الأدب ومدارات الخيال ضمن المشهد الثقافي الفرنسي، فلم تعُد ذلك المكوّن الرئيسي الذي طالما ألهم الكتّاب وقام عليه تيار أدبيّ بأكمله: الرومانسية، ولا ذلك الملاذ الأدبيّ الذي يفرّ إليه البائسون من فظاعات المجتمع والسياسة. وبحسب هذه الدراسة، تقلّص وجودُ الطبيعة باعتبارها إطاراً مكانيّاً من دائرة وعي الفرنسيّين بنسبة خمسة عشر في المئة، كما انحسرت من مجال الرؤية، بعد أن حلّت محلّها البناءات الكثيفة والعمارات الشاهقة التي باتت تُغطّي أشعة الشمس وتحجب خضرة الأراضي.

ومعلومٌ أنّ هذا الغياب كان بفعل الهجمة الحضرية والجشع الرأسمالي الذي وضع الربح المادّي في أعلى أولوياته، على حساب المساحات الخضراء التي هي رئة الكوكب ومدار النفس والجمال فيه. ومن نتائج هذا الغياب، اختُصر محور «الطبيعة» في مفهوم «الإيكولوجيا» الغامض الذي يُحيل على البيئة بما شهدته من متغيّرات مناخية سلبية، وتعالت الأصوات الداعية لضرورة الحفاظ عليها، إلّا أنّ غموض المفهوم أسهم في تقليص الوعي المباشر بالطبيعة ومحاسنها. ويقابل هذا الانحسار التدريجي لمفهوم الطبيعة في الوعي الفرنسي، جرّاء اختيارات الدولة السياسية والعمرانية، إعدامٌ مقصود لها في فلسطين عبر التدمير المنهجي لحقول زياتينها وتينها وبرتقالها وما تبقّى فيها من اخضرار؛ فقد لحقها تخريب مستمرّ أضرّ بالمزارعين وبما غرسوه من مشاتل في دفيئاتهم الضّنينة، ولم يبقَ من امتداد الطبيعة إلّا مساحات محدودة، ضيّقها الاستيطان المستمرّ منذ عقود، أمام صمت عالمي، حتى تركّزت في مساحة قطاع غزّة، التي لا تتجاوز 365 كيلومتراً مربّعاً، كثافة سكّانية عالية جدّاً تتجاوز مليوني نسمة، وهو ما يشكّل جريمة موصوفة ضدّ الطبيعة التي عانت مرّتَيْن: الأولى ظلم الاستيطان الذي فجّر هذه الكثافة، والثانية بسبب الدمار الذي ألحقه الاحتلال بما نشأ من مبانٍ بسبب تلك الكثافة.

ومن جديد، تكشف هذه المقارنة السريعة المركزيةَ الأوروبية، إذ يُنظر إلى انحسار الطبيعة في الفضاء الفرنسي على أنه «قلق في الحضارة»، يؤلم الضمير الفرداني ويزعجه مع أنه من تبعات توحّش الاستعمار الأوروبي وتغوّل الرأسمالية طيلة القرون السابقة، وقد تفنّنّا في تدمير مقدّرات الطبيعة لإرضاء وهْم القوّة الصناعية والجبروت الحربي اللامحدود، في حين يبدو انحسار الطبيعة داخل الفضاء الفلسطيني نتيجة لاحتلال لا يُميّز بين البشر والشجر والمدر، يأتي بآلاته العسكريّة على الأخضر واليابس، من دون أن يأبه الضمير الأوروبي لهذا التدمير، لا لأنّه لا يحبّ الطبيعة عموماً، بل لأنّ هذا التدمير يطاول طبيعة فلسطين خصوصاً، ويمسّ الفرد الفلسطيني تحديداً، الذي تعتبره هذه المركزية الأوروبيّة كائناً خارج التاريخ.

رجل فلسطيني في موسم قطاف الزيتون بخانيونس، جنوبي قطاع غزّة، 5 تشرين الأوّل/ أكتوبر 2023 (Getty)

وتبعاً لذلك، تُعتبر هذه المركزيةُ أرضَ فلسطين مساحة خارجة عن الاهتمام الإيكولوجي والانشغال بالبيئة، مع أنّها تتبجّح بالدفاع عن البيئة حتى وصلت في تقديس عناصرها إلى حدّ السخافة والغلوّ، كصرف آلاف الدولارات من أجل قطط أو أسماك ليست حتى من الفصائل النادرة، في حين لا يرفّ لها جفن حين تنزل على الحقول والحيوان والبشر آلاف القنابل فتدكّ الأرض دكّاً، ولا يكون لها صدى في ضمير دُعاة المحافظة على الكوكب الملتزمين بقضايا البيئة وأنواع الحياة فيها.

واللافت في الأمر أنّ الأحزاب «الخُضر» التي تُدافع عن الطبيعة في أرجاء القارّة الأوروبية، تتجاهل تماماً ما يُرتكب من تدمير بحقّ طبيعة فلسطين، كأنّها ليست من هذا الكوكب وكأنّ برتقالها (وتينها وزيتونها أيضاً) «ليس أجمل برتقال على حوض البحر الأبيض»، و«ليس شاطئها أشدّ زُرقة من شواطئ المدن العربية»، كما قال محمود درويش في نصّه «صمتٌ من أجل غزّة». هذا الصمت الذي لم تُمزّقه سوى أصوات الجرّافات الهادرة والدبّابات الجائرة، التي تسحق بعجلاتها أزاهير الحقول والدروب ومعها يافع الأشجار والنبات، وحتى البهائم وأليف الحيوانات لم تسلم من هَوَج التشفّي وعبث الانتقام.

الصوت الوحيد الذي أدان إبادة أراضي غزّة وشجرها كان للطفلة غريتا تنبيرغ، ولم يبطئ الردّ الإسرائيلي في خنقه وحذف كلّ إشارة إليها من برامج التعليم عقاباً وتشفّياً. وما هذا الصوت إلّا استثناء يؤكّد القاعدة ولا ينفيها. ولعلّ أول ضحايا هذا الغياب المتسارع لصورة الطبيعة، أكان ذلك في فرنسا أو في فلسطين، هُم الأطفال الذين لم تعُد الطبيعةُ تحيط بأقطار وعيهم ولا مصدر إلهام لهُم أو موضوع محفوظات سنواتهم الأولى، كما تلاشت معها حقول دلالية كاملة مثل أسماء الوحيش والنبيت والحيوانات الأليفة وأصواتها هديلاً وهديراً، بعد أن زالت من مخيّلاتهم البريئة.

وفي الغرب، استعاضوا عن هذا الغياب بالألعاب الرقميّة وأضوائها الاصطناعية وموسيقاها الصاخبة، ولا شكّ في أنّ الرفاه المادّي الذي تعرفه مجتمعاتهم يعوّض نوعاً ما جمال الطبيعة. وأمّا الطفل الفلسطيني فلا بواكي له، ولا تعويض له عن خسارته سوى بالركام اللامتناهي الذي تنّصل أكواهه على مدّ بصره الثائه.

المنطق نفسه ينسحب هنا: الطفل الفلسطيني لا تعدل براءتُه نظيرَه الفرنسيّ.

> يتجاهل مناصرو البيئة تدمير الاحتلال لطبيعة فلسطين

> جريمة مزدوجة: استيطان الأرض وإبادة ما يتبقّى منها

الأرض وشعبُها

قد يبدو البكاء على الطبيعة غريباً بعد ارتقاء سبعة وعشرين ألف شهيد. نحن لا نفصل بين الأرض وشعبها ولا بين خَبّ الرمل وزرقة السماء وحُلم الأطفال، كما لا نميّز بين قَتْل بطاول البشر أو تجريف بقلع شجر الزيتون. كلّها كائنات حيّة تتساوى حُرمتها وجمالِيّتها. بل إنّ ما أحاق بالطبيعة يفوق أحياناً ما أصاب الإنسان، ولن تفلح الحرب الفظيعة في خنق نداء أمّنا الأرض ولا في قتل بناتها من ورد وبرتقال.

إطلالة

الباب العالي الغربي

في موت الإرادة السياسية العربية

في غزّة وفي غيرها، يُترَك الإنسان العربي وحيداً في مواجهة مصيره تحت القنابل، أو في مخيّمات اللجوء، أو في قوارب الموت التي تعبر المتوسّط

أسامة إسبر

في ضوء العدوان الإسرائيلي المشحون عنصريّاً، الذي يُشنّ على غزّة، ويستهدف المدنيّين بشكل مباشر على مرأى ومسمع من الناس في العالم كلّه، دون أيّ تدخّل عربيٍّ رسميٍّ فاعل لإيقاف القتل اليومي، يبدو العالم العربي، على المستوى الرسمي، مُفرَغاً من الإرادة السياسية، أي لا توجد سياسات عربية رسميّة مؤثّرة في سياق الأحداث، لا على المستوى المحلي ولا على المستوى العالمي. ويبدو، في ظلّ هذا الفراغ المتواصل لعقود، كأنّ الناس في غزّة ينتمون إلى قوميّة أخرى، أجنبيّة، ولا توجد روابط مع سكّانها، وكأنّ بلاغة النضال التي ترعرعنا عليها في المدارس، وشعر المقاومة الحماسي الذي ضجّت به منابرنا وصُحفنا ومجلّاتنا وإذاعاتنا وفضائيّاتنا، وحماس العمل النضالي الذي ضجّت به مقاهينا والزبد البلاغي كلّه من المحيط إلى الخليج، تبخّر من الوجود.

ويبدو أنّ اللغة العربية، رغم تاريخها الطويل، لم تعُد رابطاً مشتركاً، بل برهنت الشعوب الغربية، رغم أنظمتها الاستعمارية، أنّها تجاوزتنا في التعبير عن إدانتها للعدوان، فخرج مواطنوها إلى الشوارع بالآلاف، وتحرّكت جامعات غربية عريقة لإعلان تضامنها ورفضها للعدوان، بينما بقيت الجامعات العربية صُمتة، أو من أجل توخّي الدقّة، لا تمتلك تُراثاً احتجاجياً، ومضبوطة أمنيّاً بينما الشارع العربي لا يزال مغلقاً ولا يُفتح إلّا بإذن رسمي.

وفي الوقت الذي تعصف فيه أحداثٌ كبرى بالعالم العربي تهدّد بتغيير خريطته ووجود سكّانه، نجد أنّ السياسات العربية ظاهرة فائضة عن الحاجة، ذلك أنّ أي مؤرّخ لتاريخ السياسة الرسمية العربية الحديثة في العقود الأخيرة لن يسجّل لها أي انتصار نوعيّ على صعيد التأثير في الأحداث الإقليمية أو الدولية.

وتتكشّف مهزلة السياسات العربية على أكمل وجه في انعدام دورها أو وزنها الإقليمي والدولي، ففي الأحداث الكبرى والحروب لا أحدَ يسأل العرب عن رأيهم، حتّى حول ما يجري في منطقتهم، بل يأتي مبعوثون ينقلون إليهم أوامر الباب العالي الغربي، ويحجّمونهم في دور الوسيط، حتى ولو كانت أراضيهم مسرحاً لهذه الأحداث، فيما يستطيع الطيران الحربي الإسرائيلي، إن شاء، أن يخترق الأجواء العربية كلّها، دون أن تمتلك أيّة دولة عربية مقدرة عسكرية تكنولوجية من ابتكارها الخاصّ على إسقاط طائرة له. وما اختراق الأجواء اللبنانية والسورية المنتظم إلّا رسالة للعرب أجمعين بأنّ أجواء «الشرق الأوسط»، وليس الوطن العربي فحسب، عليها ختم نجمة داود. ورغم تردّي الأوضاع والأخطار المُحدقة بالأمن الوجودي (لن أقول القومي) العربي، فإنّ هذا لا يدقّ أي ناقوس خطر بالنسبة إلى السياسيّين العرب الذين يرى بعضهم أنّ التحالف مع «إسرائيل» ضمان لمستقبلهم أو يشكّل حماية لهم من خطر لا يكفّون عن تضخيمه لصرف الأنظار عن استئثارهم بالكراسي والثروات.

على شاشة ما يحدث في أوكرانيا، وفي أمكنة أُخرى من العالم، نشهد استمرارية استعراض العضلات النووية، والتهديدات والمناورات التي تثير مخاوف من حرب كونيّة جديدة، فيما تتبارى وسائل الإعلام في الحديث عن أسلحة نهاية العالم، بدءاً من الغوّاصات وانتهاء بالصواريخ الخارقة لسرعة الصوت والطائرات المسيَّرة بمختلف أنواعها.

> كأنّ حماسة النضال التي نشأنا عليها تبخرت من الوجود

ومنذ أن بدأ الإعلام مؤخّراً بإلقاء الضوء على أنواع هذه الأسلحة ونشر سيناريوهات عن الضربات النووية المحتملة، عدنا إلى السؤال الذي طُرح سابقاً: هل يمكن أن تُستخدم هذه الأسلحة؟ إنّ الجواب عن هذا السؤال واضح في ضوء ما حدث في التاريخ الحديث، وتكرار السيناريو ليس بالأمر المستبعد حالياً. أمّا في منطقتنا، فيتواصل تدهور الوضع وتغيّب الدول العربية كمُنتِج عن ساحة أسلحة الدمار الشامل، وتحضر كمستهلك لأسلحة بعينها يُسمح ببيعها، وضمن شروط، وذلك مراعاة لطلب «إسرائيل» بأن يكون تسليح الدول العربية دوماً أدنى من المطلوب، كي تظلّ كالخراف في حظيرتها. إنّ العالم العربي، في ضوء ما يحدث في العالم، لا وجود له إلّا كساحة للقوى الكبرى لاستعراض مقدراتها ونفوذها ولنهب الموارد دون أيّ اكتراث بشعوب المنطقة. يقف العالم على عتبة تحدّيات جديدة ومُخيفة؛ فالموارد تضمحلّ وملامح الجوع ترتسم على الوجوه، وصارت قوارب المهاجرين التي تغرق في المتوسّط لطخة عار على جبين البشرية. وفي عالم عربي يمتلك من الثروات ما يجعل لعاب أيّ دولة غربيّة يسيل، نرى بأمّ العين كيف تُهدَر هذه الموارد في تمويل حروب عبثيّة، وفي تدمير بلدان بأكملها وفي تشكيل جيوش ومليشيات تنتمي إلى العهد القديم وظلمات القرون الوسطى.

(شاعر ومترجم سوري مقيم في الولايات المتحدة)

النص الكامل على الموقع الالكتروني

من مظاهرة مؤيّدة لفلسطين أمام سفارة الاحتلال في طوكيو، 11 شباط/ فبراير 2024 (Getty)

متابعة

سردٌ يقاوم منظومة الجهل والكذب التي تفرض نفسها على العالم

مرّاكش للكتاب الأفريقي إدانة الاستعمار في الماضي والحاضر

نصب تذكاري في مدينة أوكاهانجا لضحايا الإبادة الجماعية التي ارتكبها الاستعمار الألماني في ناميبيا، آب/ أغسطس 1989 (Getty)

ناقش المشاركون في الدورة الثانية من المهرجان مسطرةً واسعة من المواضيع؛ مثل الهوية والثقافة والأفريقيّتين والهجرة والذاكرة والاستعمار

الرباط ـ **العربي الجديد**

اختتمت، أمس الأحد، فعاليات الدورة الثانية من «مهرجان مرّاكش للكتاب الأفريقي»، والتي انطلقت الخميس الماضي في «المركز الثقافي نجوم جامع الفنا» بالمدينة الواقعة جنوبي المغرب. شهدت التظاهرة، التي تُنظمها جمعية «نحن فن أفريقيا»، مشاركة قرابة أربعين كاتباً وشاعراً ومفكّراً وفنّاناً من أفريقيا وخارجها؛ من بينهم: عبد اللطيف اللعبي وخالد اليملاحي وليلى باحسايين وسهام بوهلال وياسمين الشامي وعلي بن مخلوف من المغرب، وسعد خياري من الجزائر، وصوفي بيسيس من تونس، وفانتا درامي من موريتانيا، وتحفة محتاري من جزر القمر، وسليمان بشير دياني من السنغال، وخوسيه إدواردو أغوالوسا من أنغولا، وبوم هملي من الكاميرون، ويلفريد نسوندي من جمهورية الكونغو، وميا كوتو من موزمبيق، إضافةً إلى المفكّر وعالم الاجتماع الفرنسي البارز إدغار موران.

وتضمّن برنامج الدورة عدداً من الندوات واللقاءات والمقاهي الأدبية، وتوقيعات الكتب، إلى جانب أمسيات أدبية وموسيقية وأنشطة تعليمية. وتناول المشاركون في اللقاءات مسطرةً واسعة من المواضيع؛ مثل الكتابة الأدبية والهوية والثقافة الأفريقيّتَيْن والهجرة والذاكرة والاستعمار.

أحد تلك اللقاءات ذلك الذي أقيم في أوّل أيام المهرجان تحت عنوان «تنوّعُنا ومشتركُنا»، وتحدّث المشاركون فيه عن ضرورة أن تُشكّل الكتابةُ الأدبية الأفريقية فعل مقاومة ضدّ الاستعمار الذي أخضعت له القارّة في الماضي وضدّ بقاياه اليوم، وأيضاً ضدّ اليمين المتطرّف الذي يتنامى حالياً في الغرب. في هذا السياق، قال الكاتب والشاعر الهاييتي، سانتيلوا رودني، إنّ السرد يُمثّل «نوعاً من المقاومة ضدّ منظومة الجهل والكذب التي تُريد فرض نفسها على العالم»، واعتبر الكاتبُ والصحافي المغربي المقيم في هولندا، عبد القادر بنعلي، أنّ من واجب الكتّاب الأفارقة الدفاع عن هويتهم والافتخار بجذورهم في ظلّ تصاعُد اليمين المتطرّف في البلدان الغربية، بينما تحدّثت الروائية الإيفوارية الفرنسية، فيرونيك تادجو، عن العبء الذي تفرضه الذاكرة الجماعية الأفريقية المثقلة بإرث الاستعمار وقصص الإبادة على الذاكرة الشخصية التي قالت إنّها تجد صعوبة في التعبير عن نفسها، وتحدّثت الكاتبة الجمايكية المقيمة في النيجر، تيجاني ألو أنطوانيت، عن الكتابة التي تتعرّض للقصص الناتجة عن التاريخ الاستعماري. وفي اليوم نفسه، أُقيم لقاءٌ بعنوان «الكتابة عن المآيين»؛ تحدّثت فيه كلٌّ من الكاتبة الموريتانية الفرنسية فانتا درامي والقاصّة المغربية الفرنسية ليلى باحسايين والكاتبة والشاعرة الكاميرونية بوم هيملي عن هويتهنّ الثقافية الأفريقية وعلاقتهنّ بالوطن الأمّ وبلد الاستقبال، وإلى أيّ مدىً تُشكّل الكتابةُ وسيلةً فعّالة لتجاوُز الحواجز الجغرافية وإعطاء صوت للأجيال الأولى من المهاجرين، والتي غالباً ما يجري تجاهلُها في مجال الأدب.

> عبء تفرضه الذاكرة الأفريقية المثقَلة بإرث الاستعمار وقصص الإبادة

النص الكامل على الموقع الالكتروني

فعاليات

حتى الثاني والعشرين من الشهر الجاري، تتواصل، في الكويت العاصمة، فعاليات الدورة التاسعة والعشرين من «مهرجان القرين الثقافي»، والتي انطلقت مساء أمس الأحد. تستضيف التظاهرة الروائية الفلسطينية **عدنية شبلي** (الصورة) في محاضرة تحت عنوان **أدب المقاومة**، تُقدّمها الكاتبة الكويتية **بثينة العيسى**.

يُطلق «متحف: المتحف العربي للفن الحديث» في الدوحة، عند الثانية من بعد ظُهر الجمعة المقبل، مبادرة بعنوان **الفن للسلام** تضامناً مع الشعب الفلسطيني. يتضمّن البرنامج ورشات عمل في العديد من المجالات الإبداعية؛ مثل إنشاء مجموعة من الوسائط المختلطة تهدف إلى رفع مستوى الوعي بالقضية الفلسطينية، والدعوة إلى حملة وطنية لجمع التبرّعات لصالح أهالي غزّة.

تُنظّم حملة «التضامن الإيرلندي الفلسطيني»، عند الواحدة من بعد ظُهر السبت المقبل، مظاهرة أمام مبنى وزارة الخارجية الإيرلندية في دبلن، تحت شعار **الحرية لفلسطين، إنهاء الإبادة الجماعية في غزّة**. تشارك في الحملة منظّمات مناهضة للاحتلال ونظام الفصل العنصري واتحاداتٌ عمّالية وحقوقية.

حتى مساء غدٍ الثلاثاء، يتواصل معرض **مئة لوحة من غزّة** في «متحف محمود درويش» بمدينة رام الله، والذي افتتح الأربعاء الماضي. تحضر في المعرض لوحات لخمسة وعشرين فنّاناً من بينهم: **ميسرة بارود**، و**دنيا مطر**، و**شريف سرحان**، و**عبير جبريل**، و**ميساء يوسف**، و**أشرف سحويل**، و**رائد عيسى**، و**محمد الحاج**، و**معتز نعيم**.